اضطراب المصطلح في الدراسات الأدبية و النقدية

شرشار عبد القادر

جامعة وهران

إن الهدف من هذا البحث هو استجلاء ظـــاهرة اضطـــراب المصطلـــح فـــي الدراسات الأدبية والنقدية،وما نشأ عنها من قضايا في مجال تطور البحث النقدي العربي المعاصر.

وفي البداية أقترح تحديد بعض المفاهيم(ومعركة المفاهيم قائمة الذات في عالمنا اليوم) المطروحة في هذا البحث،حتى يحصل تواصل طبيعي بيننا.

الاضطراب المصطلحي:

نعنـــي بـــالاضطراب المصطلحـــي الاختـــلاف الحـــاصل فـــي التســـميات المصطلحية،بسبب غياب التنسيق بين المترجمين بصفة عامة والمشتغلين في ميدان النقـد الأدبي خاصة.

أما مفهوم **المصطلح**: من الوجهة العلمية فقد حبّر فيه الغربيون ما شاءوا وما استطاعوا، وما زال عندنا موضع خلاف.

وغني عن القول "إن الجهاز المصطلحي في كل حقل علمي أو معرفي،أو فـــي نظرية من النظريات العلمية يترجمه نسق لغوي،تتعالق وحداتـــه لتكشـــف عـــن البنيـــة الداخلية للعلم أو النظرية،فلا غرو أن يهتم العلماء على اختلاف مشاربهم بهذا الجـــهاز المعبر عن المعارف والقوانين التي يتوسلون بها."(1)

فالمصطلح لغة خاصة أو معجم قطاعي يسهم في تشييد بنائه ورواجـــه أهـــل الاختصاص في قطاع معرفي معين.والمصطلح وإن استقل نسبيا عن اللغة العامة إلا أنه يغرف منها،وينسحب عليه ما ينسحب عليها،حيث يتجلى أن المعجم القطاعي في علاقـــة دائمة مع المعجم العام،وبسبب هذا الارتباط تتبدى صعوبة الانتقال من لغة إلى أخـــرى

باستخدام الرصيد المصطلحي الداخلي فقط،فتعريب الثقافة العلمية والأدبية الغربية يقتضي اللجوء إلى ما يُدعى المصطلح الخارجي،وهو جهاز يصاغ ويشيد إلى جانب المصطلح الداخلي بناء على مقولات فكرية،غير أن هناك تصادما وصراعا بين الألفاظ والتمثلات الداخلة يفضي إلى تعايش مرحلي أو إلى هيمنة ثقافية كلية أو جزئية،ومعلوم أن تصادما من هذا القبيل لا يخلو من اضطراب النسق والنظام القائمين.(2)

والمصطلح أو الاصطلاح هو العرف الخاص،وهو اتفاق طائفة مخصوصة على وضع شيء،قال الشهابي:"هو لفظ اتفق العلماء على اتخاذه للتعبير عن معنى من المعاني العلمية"(3) فالاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية أو الأصلية،ولذلك فهي لا توجد ارتجالا بل لا بد في كل مصطلح من وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي،ومن الواضح أن اتفاق الباحثين على المصطلح العلمي شرط لا غنى عنه،بل لا يجوز أن يوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظة اصطلاحية واحدة.

موقف النقاد من الظاهرة:

يعتبر فريق من النقاد ظاهرة الاختلاف المصطلحية مسألة طبيعية،ذلك أن المفاهيم الثقافية والعلمية مفاهيم نسبية التحديد،وهي في سعيها إلى الانضباط والتطبيق تثير الاختلاف أكثر مما تثير الاتفاق.(4)

بينما يرجع فريق ثان هذه الظاهرة إلى ضَعف ملكة الخلق والإبداع،فالنقاد في زعم هؤلاء صنفان:صنف يميل إلى العمومية وصنف يتهافت على مستودع النقد الغربي يأخذ منه من غير تدقيق أو إعمال نظر،"وقل أن نجد صنفا ثالثا ممن يجنحون إلى الخلق وامتلاك المصطلح الخاص" على حد تعبير عبد الحميد العيدوني.(5)

و هناك فريق ثالث ركز اهتمامه على المصطلح النقدي في حد ذاته،فوجد أن الخلل يكمن في إهمال النقاد الجوانب العلمية للمصطلحات،وتركيزهم ينصب على المسائل

اللغوية والإيديولوجية؛إما عن وعي، أي بقصد وسبق إصرار،وإما بسبب جهل الجذور الابستيمولوجية للمصطلح،أو عدم قدرة استيعاب وتمثل لهذه الجذور، ومن أكثر المظاهر الدالة على ذلك الحيف الذي لحق مصطلح الواقعية بحيث تحول من مصطلح فلسفي إلى مصطلح لغوي شديد الابتذال.(6)

فانتقال المصطلح من مجال إلى آخر كثيرا ما يثير الالتباس، إن لم يُركّز فيه على الخصوصية النوعية للمجال المعرفي،لأن تداخل الاختصاصات والعلوم بقدر ما أفاد المصطلح بقدر ما كان آفة وويلا عليه.(7) ونحن لا ندعو إلى عدم تلاقح النظريات واستفادتها من بعضها البعض،لكننا نحبذ ألا يُحدث ذلك الانتقال بلبلة واضطرابا في الأنساق الداخلية والتماسك المفهومي للشبكة المفاهيمية من حيث تقطيعها وتسلسلها التراتبي.(8)

فاضطراب المصطلح ناتج عن بعض هذه الظواهر،أو عنها كلها،مما أثر سلبا على الوضعية التي يعاني منها المصطلح على مستوى الوضع والمفهوم،وقد تسبب عن ذلك ظهور انحراف في مسار النقد الأدبي، تحاول بعض الدراسات ربطه بنشر ثقافة الاختلاف،ومنها اختلاف الترجمات، اختلاف الاجتهاد في الترجمات باختلاف منبع الثقافة الغربية؛فالمشارقة يترجمون بطريقة تختلف عن مترجمي الدول المغاربية لاختلاف منبع الثقافة التي يترجمون عنها،وداخل المغرب العربي يترجم المصطلح الواحد بأكثر من لفظ واحد،إن لم يحصل على مستوى البلد الواحد.ولعل ذلك أو بعضا منه يعود إلى صعوبة ترجمة النصوص النقدية"لانتظامها داخل شبكة اصطلاحية شديدة التعقيد،فأي خطإ في ترجمة مصطلح قد يؤدي إلى تقويض النظرية النقدية،أو تشويهها."(9) ذلك أن نصوص النقد الأدبي مبنية على شبكة من المصطلحات مرتبطة أصلا بثقافة مغايرة ،لها جذورها وطقوسها،إضافة إلى ارتباط المصطلح نفسه بفلسفة معينة أو انتمائه داخل تخصص من الدقة بمكان لدرجة يصعب معها إيجاد مقابل له داخل اللغات الأخرى.(10)

ويعزو فريق من النقاد هذه الظاهرة إلى الخلاف القائم بين أصحاب النقد القديم والمجددين، حيث تتحول مصطلحات ونصوص المجددين إلى ألغاز وطلاسم،فتثور أقلام المحافظين مستنكرة استعمال مصطلحات معربة كالمرفولوجيا والأنطولوجيا والبويقا والسيميولوجيا والهرمونيطيقا وغيرها من المصطلحات التي لا يفهمها إلا من لهم إلمام باللغات الأجنبية والفلسفات التي نشأت ونمت فيها هذه المصطلحات.(11)

إن هذا الاضطراب ليس ظاهرة مقتصرة على النقد العربي،بل هي سمة مشتركة بين نقود عالمية،فهذا "أنريك أندرسون أمبرت" الإسباني على سبيل المثال يثير في كتابه"مناهج النقد الأدبي" أزمة اضطراب المصطلح،وانشطار ذات الناقد بين استعمال المصطلحات القديمة وما يمكن أن يتسبب ذلك في عجز عن نقل المحتوى،وبين تبني أعمال عصرية تؤدي إلى سقوط في فخ التحذلق والفذلكة اللغوية.(12)

ويرجع الدكتور رشيد بن مالك وجود التضارب في الترجمات العربية،ولا سيما في مصطلح السيميائية إلى الاختلافات الموجودة في البحوث السيميائية الأوربية بخصوص الموضوع الذي ينبغي أن تستقل به كل ممارسة.(13) ويشير الباحث إلى أن هذا الاختلاف والتضارب حول استعمال المصطلح كان موضوع تصريح أدلى به غريماس إلى جريدة "لوموند" الفرنسية أشار فيه إلى ضرورة الاهتمام بما هو أهم من النزاع حول الكلمات والاهتمام بما هو أجدر .(14)

ويستخلص من مناقشة هذه الظاهرة أن الترجمة الفاعلة تنطلق من فهم وتمثل المصطلح في اللغة الأصل وضبط إطاره النظري،وكثيرا ما أدى الابتعاد عن هذه الأسس في العمل الترجمي إلى اضطراب انعكس سلبا على عملية تلقي الرسالة الأدبية.(15)

وتأسيسا على ما قدمنا نستخلص أن ترجمة المصطلح من أكبر العقبات التي تعترض سبل المترجمين،وتظل الترجمة في مجال الأدب وما يرتبط به من ضبط اصطلاحي من أصعب قضايا الترجمة وذلك للأسباب الآتية:

1- التقدم الحاصل في مجال الدراسة الأدبية والنقدية واللغوية عند الغـــرب،وقصـــور الدراسات العربية،كما هو الشأن في جل المعارف الأخرى.

2-الثورة اللسانية والنقدية التي شهدها القرن العشرون والتي مثلت الســـتينيات أبـــرز بؤرها المتفجرة على صعيد وضع المصطلح النقدي واللساني،وظهور العشرات مـــن المصطلحات الجديدة التي لم تكن معروفـــة أو مألوفـــة بالنســـبة للمعجـــم اللســـاني والنقدي.(16)

3- تفاعل الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية مع الانفجار المعجمي والاصطلاحـــي الجديد سواء على مستوى ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيـــات مترجمة لهذه المفاهيم.

4- ظهور مشكلات نوعية جديدة توازت مع الحركة الانتقالية الثقافية والعلمية واجهت بصورة خاصة اللسانيين والنقاد والمجامع اللغوية وهيئـــات التعريـــب فـــي الوطـــن العربي،لم يتم تجاوزها إلى يوم الناس هذا.

5- الانقطاع الحاصل بين حاضر الدراسة الأدبية والنقدية وماضيها.

فالدراسات الأدبية هي من جملة الأعمال القليلة التي يحاول من خلالها العـــرب إثبات وجودهم الثقافي والعلمي بواسطة اللغة العربية،واعتمادا على أدب يراد له أن يعبر عن الواقع العربي، وعبر نقد أدبي استنبطت أسسه ومعاييره مـــن الدراســـات النقديـــة الأجنبية.(17) أما العلوم الأخرى فما زالت أعجميـــة اللســـان فـــي معظـــم الجامعـــات العربية،حيث استراح أصحابها من قضية الترجمة.

مظاهر الاضطراب في ترجمة المصطلح النقدي:

لا ينكر أحد أن الدراسات الأدبية الغربية أم ولود تنتج العديد من المصطلحـــات بشتى الوسائل،لكن يسجل الاضطراب -فقط- حينمـــا تـــترجم هـــذه الدراســـات إلـــى العربية،وتؤخذ مفاهيمها ومصطلحاتها إلى العربية وتوظف بها.ومن بين هذه المظاهر:

1- ترجمة المصطلح الواحد بألفاظ متعددة: قد يترجم المصطلح الواحد بعدة ألفاظ في نص معين،وحتى وإن استخدم مصطلحا واحدا من قبل أحد المترجمين فهناك من يعيد ترجمة النص نفسه ليضع له مصطلحات جديدة خاصة به،وهكذا إلى أن يتولد العديد من المصطلحات،وإذا حصل وأن استقر المصطلح-وهو شيء نادر- وتداولت عليه الدراسات العربية،فإننا نلفي من يجتهد في استخدام ألفاظ جديدة يراها أنسب للحمولة المصطلحية الغربية لم يرها غيره من ذي قبل.

فنموذج مصطلح *"الشعرية"* Poétique ترجم بـ: الإنشائية،فن الشعر،نظرية الأدب،الشاعرية،قضايا الفن الإبداعي،علم الأدب،صناعية الأدب،الإبداع،فن النظم،نظرية الشعر،بويطيقا،بويتيك الخ..

ومع أننا كدنا نطمئن إلى استقرار مصطلح "الشعرية" إلا أن كتابات جديدة ما زالت تصدر تشوش على هذا الاستخدام.

-مصطلح "**الخطاب**":Discours ترجم بـ: القول،الأطروحة،الحديث،الإنشاء،لغة الكلام، الكلام المتصل،أسلوب التناول،وإن كنا نشعر أن الاستخدام استقر على مصطلح "خطاب".

- مصطلح "**العدول**":Ecart ترجم بـ: الانزياح، الانحراف، الازورار، الشذوذ، الخروج، التشويش، البعد، الفارق، الخرق، الابتعاد، التشويه، المجاوزة، الانتهاك، النشاز، الاتساع، الخ على الرغم من أهمية هذا المصطلح في الدراسات الأدبية عموما والشعرية على الخصوص،لكنه يعرف اضطرابا لا مثيل له.

ويتعدى أحيانا هذا الاضطراب مستوى اللفظ،ليتجلى ضمن تعددية لا تقبل الانفتاح والانتهاك،كما هو الشأن في بعض ترجمات عناوين وأبحاث؛مثلا:ترجمة عنوان كتاب رولان بارت:Introduction à l'analyse structurale du récit بأربع صيغ مختلفة

هي:

- التحليل البنوي للقصة القصيرة،ترجمة نزار صبري،بغداد 1986.
- مدخل إلى تحليل السرد بنيويا،أنطوان أبو زيد،بيروت،1988.
- مدخل إلى التحليل البنيوي للسرد،ترجمة:بحراوي قمري عقار،الرباط،1988.
- مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص،نخلة قديقر،بيروت،1989.

فعدم اطلاع اللاحق على أعمال السابق أو تجاهلها من شأنه أن يعمق الأزمة،وقد لاحظنا أن ما تعكسه ترجمات العنوان الواحد من اضطراب على الرغم من أن زمن الترجمة كان متقاربا جدا.فغياب التنسيق بين المترجمين،أو الاجتهاد المفرط،والتبريرات الفارغة أحيانا هي المتسبب الرئيس في استفحال الظاهرة،وخير مثال على ذلك ترجمة عنوان كتاب "رولان بارت" (Le plaisir du texte) بـ: "لذة النص"،ومعلوم أن عدة دراسات صدرت في المشرق والمغرب العربيين أشارت إلى قصور هذه الترجمة؛ورأت كلها أن ترجمة:Plaisir باللذة غير مستساغ،واقترح أصحابها مقابلا آخر هو:المتعة.(18)

ولعل مصدر الاضطراب في المصطلح النقدي يكمن في نمو ظاهرة الرغبة الذاتية في المخالفة والتجاهل عن قصد وسابق إصرار،وإلا كيف نفسر التجاوزات المسجلة حول استعمال مصطلح"اللسانيات" التي صدرت بشأن اعتماده أكثر من توصية في ندوات نظمتها أو أشرفت عليها جامعة الدول العربية،وهيئات علمية أخرى،وعلى الرغم من ذلك ما زلنا نقرأ استعمالات من مثل: الألسنية،وعلم اللغة.(19)

ونخلص إلى القول: إن ظاهرة الاضطراب في المصطلح النقدي الأدبي ليست ظاهرة مقتصرة على الدراسات العربية وحدها،بل هناك أمم أكثر منا تقدما في المجال الترجمي وتوظيف المصطلح الأجنبي، ما زالت تعاني من اضطراب المصطلح.

حاولنا أن نرجع بعض أسباب الظاهرة إلى خلفيات مؤسسة(علمية-حضارية،لغوية)لكني أرى أن بعضها الآخر يعود إلى شطط وأنانية بعض المترجمين،يمكن أن نتجاوزه إذا

توافرت الجهود،وتم التنسيق بين الباحثين ووفرت مراكز البحث العربيـــة ســبل اللقــاء والتواصل بين المترجمين والباحثين في الحقول المختلفة، وتم استثمار وسائل الاتصـــال الحديثة كالأنترنيت، وغيرها.

الهوامش :

1 – عبد القادر الفاسي الفهري،اللسانيات واللغة العربية،منشورات عويـــدات،بـــيروت– باريس، 1986، ص396.

2 – المرجع السابق،ص398.

3 – المصطلحات العلمية،القاهرة،1985،ص3.

4 – عبد الحميد العيدوني،مشاكل ترجمة المصطلح النقدي الحديث،في: قضايا المصطلـح في الآداب والعلوم الإنسانية، الجزء الثاني، كلية الآداب والعلـــوم الإنســـانية،مكنـــاس، المغرب، 2000،ص9.

5 – المرجع السابق،ص9.

6 – علي لغزيوي، مدخل إلى مشـــكلة التعريـــف المصطلحـــي فـــي النقـــد العربـــي الحديث،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب، رقم:24،ص74.

7 – محمد العمري، مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي، فكر ونقد، ع:20،ص91.

8 – المرجع السابق، ص91.

9 – عبد الحميد العيدوني، مرجع سابق، ص7.

10 – المرجع السابق، ص7.

11 – مشاكل ترجمة المصطلح النقدي،مرجع سابق،ص10.

12 –أنريك أندلسون أمبرت، مناهج النقد الأدبي، ترجمة: الطاهر مكي، دار المعـــارف، 1982، صص.161–162

13 -رشيد بن مالك، إشكالية ترجمة المصطلح في البحوث السيميائية العربية الراهنة،نص مداخلة ألقيت في الملتقى السادس حول "الترجمة والاختلاف"،2000،جامعة وهران،ص4.

14 - المرجع السابق،ص4.

15 - إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي،مرجع سابق،ص4-5.

16 - فاضل ثامر،اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث،المركز الثقافي العربي، بيروت،1994،ص184-185.

17 - عبد الرحيم الرحموني،من قضايا ترجمة المصطلح الأدبي،في:قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية،مرجع سابق،ص24.

18 - من قضايا ترجمة المصطلح الأدبي،ص.32. **فمصطلح "المتعة"** شامل لكل شعور نفسي أو جسدي باللذة،فهو يتضمن الجانب الجوهري والعرض للمفهوم،ولا تكون المتعة إلا نتيجة شيء جميل،بينما **"اللذة"** ليست إلا للعرض،فضلا عن أن اللذة يمكن أن تحصل نتيجة شيء قبيح،كما يتلذذ بعض الناس بتعذيب الآخرين،وقد نصت المعاجم الفرنسية على أن "**Plaisir**" يكون ناتجا عن شعور أو إحساس بالجمال. (Dictionnaire Hachette encyclopédique/Plaisir)

19 - يتجلى الاضطراب المصطلحي في ترجمة Linguistique بحيث نجد بشأنه مقابلات ترجمية لم يستقر على أي منها،ومن بينها: علم اللغة،فقه اللغة،اللسانيات،علم اللسان،علم اللسانية،الألسنية..الخ. وقد أوصت الندوة التي عقدتها منظمة الدول العربية بالجزائر عام 1966 باستخدام "اللسانيات"،غير أن ذلك لم يحدث إلى يومنا هذا.

وهناك من اصطنع "علم اللسان" الذي يحيل إلى التراث،حيث أطلقه الفرابي على كل العلوم اللغوية،كما أطلق ابن خلدون مصطلح "علوم اللسان" على علوم العربية،وهي عنده أربعة: علم النحو،علم اللغة،علم البيان،علم الأدب.(انظر:عبد السلام المسدس،قاموس اللسانيات).